الفصل الرابع

استغلال الدين في قضايا العنف

يتم استغلال الدين في قضايا بعيدة كل البعد عن مضمون الدين، أو عن أي منطلق روحي. فالإيمان الحقيقي لا يدفع باتجاه الطمع والعدوان ولا باتجاه القتل والتنكيل والتعذيب. ولا يمكن لعاقل أن يصدق أن هذه الأشكال البشعة للعنف يقوم بها أفراد أسوياء عرفوا محبة الله. فهذا الحكم الذي يعتبر الآخر عدوا يجب القضاء عليه، يتناقض مع جوهر الأديان، ورسالاته التي تعني المحبة والتسامح وقبول الآخر وتفضيل الصالح العام على المصالح الفردية. ولو أراد الله أن يكون العالم من فكر واحد ولون واحد لفعل ذلك، وكل من يتنكر لوجود الآخر فهو يخالف إرادة الله.

هناك الكثير من الأسباب غير الدينية تؤثر على انتماءات الناس وأفعالهم، كالسياسة واللغة والثقافة. وفي البداية كانت الحروب تشن باسم الآلهة وما زال استغلال الدين يلهب العواطف ويؤجج حماس الناس أكثر من أي شيء آخر، لتصبح الحرب والثورة عند البعض من المسائل المستحبة، وهذا الحماس يتم تأجيجه لأغراض سياسية أكثر مما هي عقائدية أو قومية، ليصبح الصراع الطائفي انعكاساً لقضايا غير دينية، حيث يعمل بعض رجال الدين على التأثير في الناس بغية تحقيق أهدافهم السياسية. وبسبب جهل معظم الناس بالمعاني الدينية الصحيحة، ينشأ التعصب وتنتشر الفوضى ويعم التقاتل بين المواطنين.

obeikan.com

رينيه جيرار يقول:" **بقدر ما يحمينا الدين من العنف ينشد العنف حمايته في أحضان الدين."**

"إن التفسير الديني بمرور الوقت، وتحيز المفسرين ومصالحهم وأهوائهم وانتماءاتهم الاجتماعية والسياسية، يؤدي إلى تراكم تفسيري يمثل حجاباً حاجزاً بين المؤمن وأصل إيمانه ومعتقداته ويصبح مثقلاً وأسيراً لمواريث من التفسيرات المختلفة. وهنا **ينطلق العنف من النص التفسيري للمقدس، أي من بنيات الأفكار الإنسانية** التي أُسقِطت على النص بهدف إسباغ المشروعية على اتجاهات ومتحيزات إنسانية وضعية لا قداسة لها." [62]

ومعظم الجماعات المهددة تتخذ من مشاعر التضامن الديني ملاذا يحميها، فتعمل على نشر سياسة تعبوية لتأمين مصالح أيديولوجية أو طائفية. وكلما ازداد التعصب أو التهور لدى الجماعات كلما ازدادت حدة الأعمال البربرية والمتهورة؛ فيتحول الصراع الاجتماعي إلى حالات عنف لا ينتهي.

"في تحليل صدر مؤخراً حول الطريقة التي انتهى بها النزاع المدني في ست حالات مختلفة- كولومبيا، زيمبابوي، اليونان، اليمن، السودان، ونيجيريا - يشير التحليل إلى أن الحالات التي ينطلق فيها النزاع من أسباب أثنية أو طائفية يكون فيها احتمال الوصول إلى حل سلمي عن طريق المفاوضات ضئيلاً جداً مقارنةً بالحالات التي ينشأ فيها النزاع من أسباب اقتصادية أو سياسية أو الاثنين معاً." [63]

الهوية الدينية يمكن أن تكون مصدراً للرحمة والوحدة، كما يمكن أن تكون مصدراً للعنف والترويع. ورغم أن الاختلافات بين الأديان ضئيلة، فالكراهية والتطرف تدفع بالبعض إلى القتل والتنكيل والهيمنة باسم الدين.

---

[62] عقل الأزمة، ص 141.

[63] لبنان في مدار العنف، ص 68.

الأحقاد الطائفية تنتشر بسرعة، وقد لا يوجد الحوار المناسب للتغلب على هذه الصراعات. ولكن سمة الاشتراك بالإنسانية تضعنا أمام أسئلة كثيرة: أليس كل الناس يتأثرون بالعنف؟ وهل هناك إنسان لا يشعر بالجوع أو البرد أو المرض؟. لا اختلاف بين البشر من الناحية البيولوجية، ولا حتى من الناحية النفسية، وإن اختلفت هويتهم الدينية، ولكن المحرضين على العنف هم من يضع الحواجز الوهمية بين الناس، ليحققوا ساديتهم و وحشيتهم، فقط هؤلاء القتلة لا يشبهون الناس، لأنهم فقدوا صوت الضمير. وكل من يريد أن يحرض على القتل سوف يخترع الحجج التي تعمل على إدخال الناس في أتون العنصرية؛ كما قال **عبد الرحمن الكواكبي** في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: " ما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقاماً ذا علاقة بالله".

وقبل ظهور الإسلام، كان هناك اضطرابات سياسية في الإمبراطورية الرومانية، وحدثت ثورة ضد المسيحية، التي اعتبرها البعض دين افساد. كما شهد عصر النهضة صراعاً ما بين الكنيسة ورجال السياسة والأسباب لم تكن دينية بل سياسية، فالحروب الصليبية الأولى كانت بدوافع سياسية اشتعلت باسم الدين.

وفي العصور الوسطى، حاول الملوك ارتداء عباءة الدين أو الادعاء بأنهم يستمدون سلطانهم من الله تبريراً لسلطتهم المطلقة، وأضافوا على العقيدة الدينية آراء ليست منها. **لوك** كره كل أنواع الصراعات، وخاصةً الصراعات الطائفية، وهاجم الملوك الذين يستغلون الدين لتحقيق مآربهم.

القديس **أوغسطين** يقول إذا كانت مهمة الدولة هي تحقيق السعادة للمواطنين فلا بد من ارتباط الكنيسة مع الدولة وهذا الارتباط يؤدي إلى قيام السلام في الأرض.

obeikan.com

الكواكبي كان يلاحظ كيف يحاول الحكام في الفترات الحرجة اللجوء إلى المظاهر الدينية لدعم سياستهم. فيقول الكواكبي: إن أبشع ما يكون هو استغلال الدين، ولكن هذا المنطق الهش سيتبدد أمام الحقيقة الموضوعية، التي تؤكد أن الأديان لا صلة لها بالعنف، فالأديان لا تقوم على العدائية والقتل إنما هي لإعلاء قيمة الفرد، وهذه الأوهام التي تم استحضارها وغرسها في عقول العامة لتقسيمهم إلى فئات وجماعات لن تستطيع أن تحقق أغراض هؤلاء المتاجرين بالدماء، فالناس أخوة في الخلق، ومن لا يتأثر بالقتل والظلم فهو ليس من بني البشر. وكل سلوك عدواني هو سمة من سمات الأفراد المرضى وضعاف النفوس، الذين يعانون من نقص وانعدام الضمير. ثم يضيف الكواكبي فيقول أن معظم رجال المسالمة واللاعنف هم من الرسل والحكماء ومقدمي الخدمات إلى الناس. ويعتبر الكواكبي من أعلام مدرسة الإصلاح الديني التوفيقي بين الإيمان والعقل وبين الإسلام والحضارة، ومن المناضلين الثائرين على الحكم العثماني.

"وهناك إرهابيون يمارسون نشاطاتهم الإرهابية تحت تأثير عقائد وأفكار مسمومة وفاسدة. وقد زينت لهم هذه العملية مشروعية القتل والفتك والتدمير وسفك الدماء. هؤلاء الذين يحرفون التعاليم الدينية لأغراض سياسية بعيدة عن الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة. فالأمية الدينية من أخطر المشكلات التي تواجه الحياة الاجتماعية والدينية. ويكمن الخطر الأكبر في أن البسطاء يعتقدون أن كل ما يُنسب إلى الدين صحيح، هؤلاء البسطاء لا توجد لديهم ثقافة دينية عميقة، أو قدرة نقدية على التمييز بين روح الدين وما يُنسب إليه، ولذلك فإنهم يقعون بسهولة فريسة للبدع والخرافات، ويقومون تحت تأثير هذا الخدر الديني المشوه بتصرفات مشبوهة تتنافى مع روح الإسلام. وهنا يترتب على المعنيين وعلماء الدين ألا يسمحوا إلا للضالعين في العلم والفقهاء في

الشريعة أن يتحدثوا باسم الإسلام، لكي لا تُروج قيم ومفاهيم ورؤى ليست من الإسلام." [64]

دائماً هناك تباينات واسعة في سلوك الأفراد الذين ينتمون للديانة نفسها، ففي كل دين يوجد أفراد لديهم طابع عدواني، وأفراد مسالمون، وإذا كان هناك من يشجع على العنف غالباً ما يكون له خلفية لا تمت للدين بصلة، فالدين يعني التسامح والمحبة، واستغلال الدين لصالح بعض الجهات يخلق انشقاقات بين فئات اجتماعية كانت تعيش بسلام، وعلى سبيل المثال ما وصفه الفقيه الأندونيسي المسلم "سيافي أنور" بكثير من التحذير بقوله:" التشريع المتسلل إلى أندونيسيا ليس فقط تطور للممارسات الدينية، بل يختص أيضاً بانتشار نظرة اجتماعية وسياسية ميالة إلى القتال في بلد يتسم بالتسامح تقليدياً، وغني بتعدديته الثقافية." [65] "ويمكن لأي شخص أن يكون لديه إيمان ديني قوي سواء كان مسلماً، أو يدين بأي ديانة أخرى، ويكون في الوقت نفسه يتسم بسياسات تتسم بالتسامح. صلاح الدين الذي حارب ببسالة من أجل الإسلام في أثناء الحملات الصليبية في القرن الثاني عشر، خصص مكانة محترمة في بلاطه الملكي المصري من دون أن يكون هناك أي تناقض، لموسى بن ميمون، ذلك الفيلسوف اليهودي المتميز الذي هرب من الظلم وعدم التسامح في أوروبا. وفي الوقت نفسه كان الإمبراطور المغولي أكبر شاه (الذي ولد مسلماً ومات مسلماً) قد وضع مشروعاً في "أكرا" يضمن حقوق الأقليات. وكان من ضمن هذا المشروع، حرية العقيدة الدينية للجميع. والأمر الذي يستدعي الانتباه هنا هو أنه بينما كان أكبر شاه يواصل سياساته التحررية، دون أن يمنعه ذلك أن يكون مسلماً، فإن هذه السياسات التحررية لم تكن بأي حال مفروضة عليه.

---

[64] التربية إزاء تحديات التعصب والعنف، ص 146.

[65] الهوية والعنف، ص 80.

ولا بالطبع ممنوعة بسبب الإسلام. وثمة إمبراطور مغولي آخر "أورانجزيب" و يُعتبر آخر الأباطرة المغول حكم الهند لمدة 48 سنة، كان لديه القدرة على حرمان الأقليات من حقوقها، واضطهاد غير المسلمين، من دون أن يكون ذلك سبباً في حرمانه من أن يكون مسلماً، بالطريقة نفسها التي لم يتوقف بها "أكبر شاه" عن أن يكون مسلماً بسبب سياسته التعددية المتسامحة." [66]

وإذا كان الدين ضد كل أعمال العنف، ويعني التقشف والزهد، فهو ليس بحاجة لمن يدافع عنه، أو يقاتل باسمه.

الإسلام والعنف

عن **النبي** (ص) قال: " **أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**".

ولم تعرف أي حضارة أكثر مما عرفته الحضارة الإسلامية من ثورة ضد الظلم والطغيان. والإسلام دين محبة وتسامح جمع كل القيم التي تناضل البشرية من أجلها.

والخير يتحقق بفضل محبة **الله** وقوته، فقوة **الله** هي الضمان للمؤمن لكي لا يكون من الظالمين، وهي التي تمنعه من أن يظلم "**(ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب إن القوة لله جميعاً)** . **(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة، أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخرى وهم لا ينصرون)**.

وكلما ازداد شعور الإنسان بقوة الله، ازداد ثقةً واطمئناناً بالمصدر الكلي

---

[66] الهوية والعنف ص 31.

للقوة، فلا يخشى على قوته أن تضعف أو تتلاشى. ما دام المصدر باقياً بدون فناء..." [67]

" وما كان الإسلام ليشرع الحرب تحريضاً على جمع المال والثراء أو احتلال الأراضي والأمصار، ولكن الإسلام يشرعها في آخر مطاف بعد أن تنفذ الفعالية للكلمة الطيبة والأسلوب الحسن وبعد أن تذهب أسباب العقل والمنطق ... " [68] (**وقاتلوا في سبيل الله اللذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**) (البقرة 190). (**لا إكراه في الدين**) (البقرة 2- 256). (**أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**) (فصلت 41 – 35). هناك طرق كثيرة لتبادل وجهات النظر، وآخر الطرق هي الحرب والقتال. (**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله أنه هو السميع العليم**) (الأنفال 61).

وفكرة الجهاد لم تكن بدافع القتل والتسلط ، بل كانت لرفع الظلم والطغيان. وما يؤخذ من الأحاديث الشريفة: "**النهي عن القتال ما وجدت الصلاة**". و"**من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**" ولا يجوز قتل كل من يؤمن بوجود الله (**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله.**)(غافر 40- 27). فالإنسان المؤمن هو واحد في كل الأديان (**هو الذي خلقكم من نفس واحدة**) و(**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.**).

في الإسلام لم يكن الدين سبب الفرقة بين الفرق الإسلامية، بل الخلاف كان على نَسب الحاكم، فالصراع أخذ الطابع الاجتماعي. والمسلمين آن ذاك أجمعوا على ضرورة وجود سلطة، لكنهم اختلفوا على مصدر السلطة،

---

[67] الإسلام ومنطق القوة، ص 33- 34.

[68] الإنسان في الإسلام ص 282.

فالحاكم على ما اختاروا يجب أن يكون من قريش، ولكن من أي فئة من قريش، فالخلاف إذاً كان حول أمور مادية دنيوية.

الإسلام يستمد قوته من **الله**، باعتبار الله هو مصدر القوة، القوة الباقية التي لا تضعف ولا تتلاشى، فالمؤمن لا يخاف من القوى الطاغية الغاشمة ما دام متمسكاً بالإيمان، لأن الله سيعطيه المعونة من أجل تغيير واقع الظلم، ولا يوجد أي مبرر للتقاعس والانهزام والاستسلام للظلم، فالدفاع عن النفس حق شرعي. وتحقيق العدالة واجب أيضاً فلا يجوز السكوت عن الظلم، ولا التسبب بالظلم . **(لئن بسطت إلي يدك لتقتلني فما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.)** (المائدة 5- 27 – 31)

" وبذلك يخلق الإسلام في قلب المجتمع رقابة ذاتية، لا تخضع لتكليف رسمي، ولا لوظيفة تقليدية، بل تخضع للشعور الإيماني الواعي بالرسالة الإلهية التي تتحول في قلب الإنسان إلى قوة دافعة، وفي كيانه الجسدي إلى قوة رادعة، على أساس من الانسجام مع وعي المسؤولية وحيويتها في حياة الإنسان." [69]

المسيحية والعنف

"جميع المسيحيين يؤكدون أن ملكوت **الله** الذي دشنه **يسوع** هو حكم **الله** الذي يسود فيه السلام والعدل. وأن يسوع نفسه جسد تماماً في سلوكه الشخصي مُثُل الملكوت الذي نادى به وأن جماعة الملكوت ينبغي أن تجوع إلى البر وتتبع السلام وتصبر على الانتقام وتحب الأعداء، وبعبارة أخرى يجب أن

---

[69] الإسلام ومنطق القوة، ص 57.

يكون الصليب سمتها المميزة، وأنه عند اكتمال الملكوت سوف: (**يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل**) لأنه (**لا ترفع أمةٌ على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد**) (إش 2: 4) [70]

يذكر سفر الأمثال الأعمال التي يبغضها اللّه: (عيون متعالية، لسانٌ كاذبٌ، أيدٍ سافكةٌ دماً بريئاً، قلب ينشىء أفكاراً رديئةً، أرجلٌ سريعة الجريان إلى السوء، شاهد زورٍ يفوه بالأكاذيب، وزارع خصوماتٍ بين أخوة) (أمثال:6-19/17) وهذه الأعمال يعاقب عليها الرب (ويرد عليهم إثمهم وبشرهم يفنيهم، يفنيهم الرب إلهنا) (مزامير- 23/94) والقاتل لا يستطيع الهروب من فعلته حتى لو لم يحاسبه أحد (الرجل المثقل بدم نفسٍ يهرب إلى الجب. لا يمسكهُ أحدٌ) (أمثال- 17/28)

"كل مسيحي مدعو ليكون صانع سلام. فالتطويبات ليست مجموعة من ثمانية خيارات، بحيث يختار بعضهم أن يكونوا ودعاء، ويختار البعض أن يكونوا رحماء، ويختار آخرون أن يكونوا صانعي سلام، فهي تشكل مجتمعة وصفاً لأعضاء ملكوته. صحيح أننا لن ننجح في توطيد يوتوبيا على الأرض، وصحيح أن ملكوت المسيح الذي هو ملكوت البر والسلام لن يصبح عالمياً في نطاق التاريخ، ولن تُطبع السيوف سككاً والرماح مناجل حتى يأتي المسيح. ولكن هذه الحقيقة لا تعطي مسوغاً محتملاً للإكثار من المعامل التي تصنع السيوف والرماح. فهل تمنعنا نبوءة المسيح عن الجوع من السعي إلى توزيع للغذاء أكثر إنصافاً؟ وكذلك لن تمنعنا نبوءته عن الحروب من السعي وراء السلام، إن اللّه صانع سلام. ويسوع المسيح صانع سلام. فإذا أردنا أن نكون أولاد اللّه وجب أن نكون صانعي سلام." [71]

---

[70] المسيحية والقضايا المعاصرة ص 91.

[71] المسيحية والقضايا المعاصرة، ص 112.

مبدأ الخلاص في العقيدة المسيحية ليس إلا تأكيداً على محبة اللّه لكل البشر، فالأب السماوي لا يفرق بين مخلوقاته، ويمنح الفرصة لكل الناس للتوبة والرجوع عن الخطيئة. "أضف إلى ذلك إن بر اللّه تعبير جوهري عن محبته. فهو يحب العدل ويكره الجور. إنه يناصر قضية الفقير والغريب والأرملة واليتيم. ويطعم الجائع ويكسو العريان ويشفي المريض ويجد الضال. ويريد أن يخلص جميع الناس وأن يقبلوا إلى معرفة الحق في ابنه يسوع المسيح." [72]

الأمان يتحقق حين نفهم الآخر.

إذا كانت الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والابتعاد عن المنازعات الشخصية، ونبذ كل ما هو مادي، والانسلاخ عن الدنيا والزهد فيها. والإسلام دين وشرع وصون للجماعة، وليس دين حرب وإبادة؛ فلماذا وصل بعض الناس إلى هذا الحد من الشر، وسؤ الظن بالآخر. وما هذا الاقتتال الأرعن باسم الدين!

الإنسان العاقل يعلم أنه مهما بلغ من المعرفة ومن القوة بأن هناك إرادة أعلى من إرادته، ويعلم بأن قدرات اللّه خارقة وكاملة، ولا يمكن لأحد أن يتحكم بمصير الخَلق، ويفرض على العالم آرائه الخاصة. ولو كان اللّه يريد للعالم أن يكون من لون واحد وفكر واحد لفعل ذلك، فالحجج والبراهين التي نستمدها من عَظمة خَلق اللّه واكتمال صنعه هي من أقوى الحجج لقبول التنوع وفهم الآخر سواء تم عرضها بصيغة القرآن أو بصورة الإنجيل.

[72] المصدر نفسه ص 60.

ولو كان اللّه لا يريد الحوار والعقل لما خلق اللّه الضمير والعقل، وضمير العاقل لن يتركه بسلام إذا خالف وصايا اللّه، أو إذا سكت عن قول الحق، فالساكت عن الحق شيطان. ولهذا كان الجدال وكان الإقناع.

"إذن يؤدي الإيمان إلى توليد منهج عمل يدفع الإنسان باستمرار نحو توحيدية حضارية متماهية مع توحيدية الدين" [73] "ولا تعني العودة إلى هذه الأصول، المقدسة أو الكلاسيكية، سوى أنها عودة إلى الروحانية التي يتمكن من خلالها العائدون من إيجاد صيغة توافق توحد بين تطورات العصر وحاجات الناس من جهة، وبين المنهج الذي يشدهم عبر الإيمان إلى الوحي. ذلك أن الوحي بعد أن تحول إلى دعوة وشرع وثقافة ومعرفة، وجسدته الجماعة في تجربة تاريخية، قد أصبح حاضراً ومستقبلاً، أي أصلاً ومقياساً وليس مجرد بداية في الماضي كأي أصل زمني آخر." [74]

ومن الكفر القول أن الأديان هي سبب النزاعات والحروب، إنما الحقيقة هي أن الجهل بمضمون الأديان والبعد عنها هو سبب الحروب؛ فإذا كان المتشددين في الدين المسيحي، والمتشددين في الدين الإسلامي قد أكدوا على أن اللّه وحده مصدر السلطة، فأين التناقض في ذلك؟. وبات من الواضح اليوم بأن البعد عن الفهم الحقيقي للدين هو من أول مسببات العنف، فالبعد عن الفهم لا يولد إلا التعصب الأعمى، وهذا العمى الذي يصيب البصيرة يشل التفكير، ومنه تنطلق حملات التكفير والقتل على الهوية، فإذا لم تكن المذاهب لتتباعد فلماذا يكفر بعضها بعضا؟. وإذا كانت الإنسانية تتساوى في الوجود فلماذا التعصب والتحجر، والحوار مع المتعصب لا يأتي غير بالشحن والعبث، ولا يمكن الوصول إلى اتفاق معه. ولكن بالحكمة والتروي وعدم مواجهة هذا

---

[73] الحضارة والدين، ص 184.

[74] المصدر نفسه، ص 188.

الكره المدمر بالكره ربما ستكون الأحوال أفضل بكثير. والحل الوحيد هو المعرفة، وإعمال الفكر للوصول إلى الموضوعية والفضيلة العلمية والخُلقية، ونشر ثقافة المحبة التي كانت جوهر الرسالات السماوية، فالله محبة وصفح وسلام، وليس طمع وحقد وكراهية.

محمد عبده وجد أن هناك جماعات منذ العصر العباسي كانت تقاتل باسم الإسلام ولكنها لا تعرف الإسلام، كانت تتظاهر بمظهر الدين لخدمة السياسة: "فلم تكن إلا عشية وضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين. بل جاؤوا إلى الإسلام بخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم، وكثيراً منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته." [75]

" إن سبب تراجع فعالية الرقابة الأخلاقية لبعض الزعماء الدينيين على الحكومات والمجتمع بشكل عام، هو انحلالهم الروحي والأخلاقي، عندما تركزت السلطتان الروحية والمادية في أيديهم ضمن نطاق الثقافة المثالية، أخذ هؤلاء التيوقراطيون يذعنون للتأثير الهدام للسلطة، وبدؤوا يخرقون أكثر فأكثر المبادئ الأخلاقية الأساسية، التي كانوا يعظون الناس بها. ولعل المسؤول الرئيس عن انحلال القيم الروحية والأخلاقية للزعماء الدينيين في الثقافة الحسية هو قيمهم المادية والداعية إلى الملذات الجسدية والمتع الحسية، فبدل أن يناضلوا كما ينبغي مسترشدين بقيم ملكوت الرب، أخذوا يناضلون بنشاط لأجل القيم المادية الصرفة لهذا العالم: السلطة والثروة، والراحة المادية، والاستمتاع والملذات والمجد، ألخ. وأخذوا يسترشدون بقيم ويتبعون وصايا

[75] الفكر العربي وصراع الأضداد، ص 372.

مختلفـة تمامـا (بـل ومتناقضـة أحيانـاً) مـع مـا تـدعو إليـه القـيم الأخلاقيـة الخالدة." [76]

" ونتيجة لذلك قد ينتهي الأمر بمقاومة العنف المبني على الـدين ليس مـن خـلال تقوية المجتمع المدني، ولكن من خلال نشر قادة دينيين مختلفين ذوي اتجاهات أكثر اعتـدالاً ظاهريـاً، والـذين يشـحنون للتغلـب علـى المتطـرفين في معركـة داخـل الـدين نفسـه، ومـن الممكـن أن يحـاولوا ذلـك مـن خـلال إعـادة تعريـف مناسبة لمتطلبات الديانة المعنية. إن مشهد السلام في العالم المعاصر قد يكمن في الاعـتراف بتعدديـة انتماءاتنـا، وفي اسـتخدام الـتفكير والمنطـق باعتبارهمـا موجـودات مشـتركة في عـالم متسـع. والتحـريض علـى العنـف يحـدث بفـرض هويـات انعزاليـة وعدوانيـة يناصـرها ويؤيـدها محترفـون بـارعون لـلإرهـاب علـى أناس بسطاء وساذجين." [77]

والتكفير لا يرضي **الله** وذلك صريح في القرآن الكريم "**(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن. إن ربك هو أعلم بمن ضل سبيله وهو أعلم بالمهتدين)**"(النحل 125) ولـو أراد الله تعـالى أن نقاتـل مـن يخالفنـا الاعتقـاد لقـال **قاتلهم** بـدل **جادلهم**،فالعدالـة الإلهيـة لا تحتـاج لمدافعين عنها، ولسنا نحـن مـن يحكـم علـى مـن اهتـدى أو مـن كفـر فـالحكم هـو لله وحده.

الأصولية

الأصولية مصطلح يعني التمسك بالنص الديني في الحكم على الأمور وإصدار التشريعات. فالأصولية لا يعنيها أي جديد، وهـي تواجـه كـل الأفكـار الوافـدة

---

[76] الفكر السياسي، العدد 45 ص 180.

[77] الهوية والعنف، ص، 12.

الجديدة على الدين بالرفض والتكفير، ولا تعترف بالمبدأ التوفيقي بين العقل والنقل، فهي تعتبر أن العقل مرتبط بالطبيعة البشرية، بينما النقل يرتبط بالمشيئة الإلهية، ولا يمكن بنظرها الجمع بين طبيعة البشر الفانية، وبين المشيئة الإلهية الأبدية. وأصول الدين بالنسبة لها نظام حياة شامل ومعرفة كاملة لا تحتاج لمعرفة البشر لتعديلها أو تأويلها، وأي تأويل أو تعديل على جوهر العقيدة هو كفر بالله تعالى. هذه الأفكار هي لب الصراع بين الأصولية وبين المذاهب الأخرى. الأصولية ترفض أي شكل من أشكال عقلنة الإيمان.

والأصولية لا تتواجد في دين واحد بل هي موجودة في كل الأديان.

" وقد تنوعت الممارسات الدينية تنوعاً هائلاً عبر التاريخ، لكن ظل الإيمان الأصولي الصارم دائماً أسهل من أي شيء آخر لفرض النظام وتأكيده، ونحن نرى كيف كانت قوة الأصولية الدينية واضحة عبر التاريخ، وهي بالتأكيد واضحة للعيان في الحياة المعاصرة، وعلى الرغم من أن تفاصيل الممارسة تتنوع في الديانات المختلفة، فإن المبدأ العام من انخراط الدين في كل نواحي الحياة هو سمة للتمسك بأصول الدين في جميع الديانات. ومن السهل تجنيد الشباب للقتال عندما يبدوا لهم أن هناك معارضة ساحقة لهذه العقيدة أو تلك." [78]

مثلاً: " كانت المؤسسة الرسمية في روما تنظر إلى المسيحيين الأوائل بوصفهم مصدر إثارة وإزعاج، وظلت هذه النظرة إلى المسيحيين قائمة إلى أن اعتنق الإمبراطور الروماني "قسطنطين" المسيحية فانقلب الأمر إلى العكس تماماً، فبعد أن أصبحت السلطة الرومانية تعتنق المسيحية أصبحت هي نفسها غير متسامحة، كما كان قدامى القضاة يفعلون مع المسيحيين من قبل. وفي

[78] عالم يفيض بسكانه، ص 111.

obeikan.com

الفيليبين عند تحويلها إلى المسيحية، أتمت إسبانيا ذلك التحول بوحشية فقتلت كل من كان يقاوم تعميده." [79]

وغالباً ما يتم استغلال بعض التيارات المتطرفة من قبل بعض القوى لبث التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد.

جون كالفن يرى أن الطبيعة البشرية فاسدة وما يرتكبه المرء من شرور إنما يعود في أساسه إلى هذه الطبيعة، أما ما يأتيه من أعمال صالحة فهو يرتد في النهاية إلى الله، فجميع أفعالنا تتسم بوصمة الطبيعة الشريرة الفاسدة وكل ما فيها من صلاح فنرده إلى الله، لا إلى أنفسنا، ويتساوى البشر جميعاً في ذلك، ولن يشفع لنا أمام الله سوى شيء واحد هو الإيمان فحسب، والإيمان هو من الله وليس شيئاً يصنعه الإنسان لنفسه. والحكومة المدنية بالنسبة له هي ترتيب من الله لرخاء الناس في عالم ساقط، ولا ينبغي تحت أي ظرف أن يظن أنها وسيلة من وسائل البشر للحكم على أساس الرضا والاتفاق، إذ ينبغي رد استخدام السلطة فيها باستمرار إلى الله لا إلى البشر." [80] لا يوجد في فكر مارتن لوثر و جون كالفن أي مجال لحكم الشعب أو العقد الاجتماعي فالله هو مصدر السلطة. كالفن لم يهتم بالديمقراطية أو بفكرة الانتخابات ما دامت مملكة الله لا توجد على الأرض، والحاكم السيء – كما يقول - ليس سوى عقاب للناس على خطاياهم.

القديس **بولس** يعتبر أن الحكمة هي الدين وحده. والسلطان هو خادم الله. وهو ترتيب من الله ومن يقاوم السلطان كأنه يقاوم إرادة الله: (لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي

---

[79] نفس المرجع، ص، 110.

[80] الطاغية ص 205.

مرتبة من اللّه. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب اللّه) (رومية: 13 – 1- 2).

كذلك القديس **توما الأكويني** يعتبر أن اللّه هو مصدر السلطة، ويعتبر المجتمعات السياسية هي حصيلة لسقوط الإنسان.

هذه بعض النماذج للفكر الأصولي المسيحي التي قد تتوافق إلى حد ما مع الأصولية في الإسلام من حيث أن اللّه هو مصدر السلطة، والحكمة هي الدين وحده.

وكنموذج لبعض الأصوليين في الإسلام: **سيد قطب** يعتبر أن اللّه هو مصدر السلطة، فالسلطة يتم تحديدها من اللّه. فسيد قطب له موقف متشدد وساخط على الأنظمة الحديثة التي لا تملك شيئاً من القيم، وحدها العقيدة الإسلامية مؤهلة لتحقيق ما أراده اللّه، والقرآن هو منهاج حياة نزل وفقاً للحاجات المتجددة، وفي القرآن الألوهية تنفي الحاكمية الأولى ولا يجب أن تكون هذه الحاكمية لغير اللّه، الحاكمية يجب نزعها من كل المشايخ والكهان والأفراد، واللّه وحده هو السلطان على الأرواح وعلى الضمائر والمال. والدين عند سيد قطب ليس نظرية تتعامل مع الفروض بل منهاج يتعامل مع الواقع. وقوانين اللّه لا تتغير ولا يجوز الأخذ بقوانين المجتمع الجاهلي والقيادة الجاهلية والتقاليد الجاهلية ولا حتى العمل على الالتقاء معه. قطب هو ضد أي توفيقية. فالديمقراطية مثلاً تناقض الإسلام المتشدد في المساواة بين الإيمان والإلحاد، كما أن الديمقراطية تجعل الشعب مصدر السلطة، بينما مصدر السلطة في الإسلام هو اللّه وحده.

ففي الدين المسيحي وفي الدين الإسلامي حقيقة لا جدال فيها باعتبار اللّه هو السلطة الوحيدة والمصدر الوحيد للتشريع وقوة اللّه فوق كافة القوى ولا يمكن لعدالة الإنسان أن تتجاوز العدالة الإلهية. وهذه الحقيقة يجب أن توحد

obeikan.com

بين الجماعات والأفراد، لا أن تفرقهم ليشعر كل إنسان بأنه محصن ضد أي ظلم يمكن أن يتعرض له لأن الله سيخلصه. فالإعدام والتكفير والقتل مسائل لم تساهم في حل أي إشكال ولا في وأد أي فتنة، ولم تسبب للأصولية المغلقة غير المزيد من الانغلاق والرفض.

وكما تصر الأصولية على إيمانها، وتعتبر هذا الإيمان وحدة متكاملة لا تتجزأ، تصر العلمانية المتشددة – وهي في بعض النواحي أكثر تصلباً من الأصولية - على أن الحداثة القائمة على مبادئ مثل الديمقراطية والحرية هي المصدر الحقيقي للتقدم والنهضة والقيم، وهي بدورها – أي العلمانية - قد تناست الديمقراطية حين سعت إلى فرض أفكار الحداثة بالقوة.

وهل بإعدام سيد قطب في آب 1966 انتهى الصراع بين السلفية وبين الفكر التقدمي؟. وهل انتهت المواجهة بين التيار "الأصولي" والتيار "التحديثي" بقتل بعض أعلام الحركة التوفيقية التي كانت تحاول التقريب ما بين الدين والعلم والمذاهب؟. **جمال الدين الأفغاني** مثلاً كان يقول: أن الكفر هو سبب الانحطاط وفساد الحياة. والدين هو أساس المدنية الصحيحة والتقدم الحقيقي والأساس للمدنية والسعادة الإنسانية. فالدين يدفع إلى الاتحاد والتعاون، والتمسك بالفضائل التي هي أقصى حالات المدنية والتحضر، فضلاً عن أنه يؤمن سعادة الإنسان، وربط الأفغاني ما بين العلم والإيمان، وجعل العلم سبيلاً لمعرفة **الله**، فهو لا يتنكر لدور العلم. وينفي الأفغاني بأن العقيدة الإسلامية تشجع على القوة، وإذا شهد تاريخ الإسلام بعض حالات العنف أو التنكيل، فذلك عائد إلى مواقف سياسية من قبل بعض الحكام المسلمين الجاهلين، وليس بسبب العقيدة الدينية. وهذا الربط بين العلم والإيمان وجعل العلم سبيلاً لمعرفة الإيمان وضعه في موضع شك أمام بعض المتشددين، وتخوفاً من آراءه الإصلاحية قُتل الأفغاني في الآستانة.

obeikan.com

"ومن اللافت لنظر الدارس أن الفكر العربي الحديث لم ينشغل بقضية مثلما انشغل بالتوفيق بين ثنائيات العقل والإيمان، والعلم والدين، التراث والمعاصرة، الدين والقومية، القومية والقطرية، العدل والحرية، الرأسمالية والاشتراكية، الشرق والغرب... الخ. ولم تأت هذه النزعة التوفيقية من فراغ (وإن اختلفت المبررات الداعية للتوفيق بين القديم والحديث) فقد كانت الفلسفة التوفيقية حجر الأساس فيما شهدته الحضارة العربية الإسلامية من فكر "كلامي" وفلسفي لدى المعتزلة ومدرسة الفلاسفة من الكندي إلى الفارابي إلى أبن سينا وأبن طفيل وأبن رشد. ولو أسقطنا هذه الجهود التوفيقية من التراث الفكري للعرب والمسلمين لفقد هذا التراث أهم ركائزه وأخصب عطاءاته."[81]

" لقد أوضح الإمبراطور الهندي " جلال الدين أكبر" القضية الأساسية منذ زمن طويل في ملاحظاته عن العقل والدين، في حوالي عام 1590، أصر على أن الدين لا يمكن أن تكون له الأولوية على العقل، حيث أن الإنسان لا بد أن يقبل أو يرفض عند الضرورة دينه الموروث عن طريق العقل. التزم "أكبر" بما أسماه "سبيل العقل" وأصر على الحاجة إلى الحوار المفتوح والاختيار الحر، وأكد "أكبر" أيضاً أن معتقدات ديانته الإسلامية تعتمد على العقل والاختيار الحر، وليس على "الإيمان الأعمى" ولا على ما أسماه "مستنقع التقاليد". وعندما هوجم من قبل التقليديين الذين احتجوا لمصلحة الدين الغريزي، أخبر أكبر صديقه وقائده العسكري الذي كان موضع ثقته "أبا الفضل" (الذي كان دارساً هائلاً في السنسكريتية وكذلك العربية والفارسية، وله الكثير من الخبرة بالديانات المختلفة ومن ضمنها الهندوسية والإسلام): قال له: (إن سعي العقل ورفض التقليدية واضح وضوحاً يجعله فوق الحاجة إلى الجدل. فإذا

[81] الفكر العربي وصراع الأضداد، ص 17.

o beikan.com

كانت التقليدية ملائمة لما كان أمام الأنبياء إلا إتباع السابقين، ولما أتوا برسالات جديدة." [82]

التعصب

التعصب مفهوم من القرن الثامن عشر، جرى وصفه للتنديد بتزمت ديني (زيلوتية zelotisme) نسبة إلى زيلوت اليهودي المتعصب. فالمتعصبون يفترضون بأنهم دائماً على صواب، وعندما نتحاور مع هؤلاء الأشخاص، بالطبع سيخذلوننا ولا يمكن للنقاش معهم أن يمر بهدوء، ولا مجال معهم لكشف المغالطات، وهذا الانغلاق يتحول إلى نوع من الغطرسة؛ التي تتحول إلى عدوانية. **فرويد** حدد عقلية التعصب بثلاث مزايا: النرجسية ، والقدرة الكلية، والإسقاط أو الإطفاء. " وهنا تكمن إحدى الصعوبات التي نصادفها حين نفحص التعصب: فتطلعاته غالباً ما تكون تطلعات بشرية، مشتركة، محترمة ومقبولة؛ لكن ما يميزها هو جانبها المرتبط "بجنون العظمة"، والرغبة في تحقيقها خارج الوقائع، والرغبة في نفي كل الحدود، وعدم قبول أي كابح. ويكون غياب التسامح كلياً" [83] ومع وجود التعصب تتفاقم المشاكل وتزداد النزعة إلى العنف، الذي يفجر النزعة العدوانية، فالتعصب الاجتماعي من أخطر العوامل، وهو يولد مشاعر الاغتراب والإحباط.

ولا يأخذ التعصب شكلاً واحداً؛ فقد يكون دينياً أو عرقياً أو سياسياً، أو غير ذلك. ولا ينشأ التعصب إلا من الجهل، فالإنسان الذي يقتصر في دراسته

---

[82] الهوية والعنف، ص، 163.

[83] سيكولوجية التعصب ص 54.

obeikan.com

علـى مـذهب معـين أو فكـر معـين، دون أي معرفـة بالـمذاهب ألأخـرى، أو الثقافات الأخرى، فإن رؤيتـه ستظل محدودة؛ ولا يمكـن تبادل وجهات النظر مع أصحاب الآراء المتصلبة. فمن الصعب أن يبقى الحوار والنقاش معهم ضمن الأطر الحضارية، وفي السياسة قد يتحول التصلب إلى بداية حروب لا تُعرف نتائجها.

والعاقل المتنور لا ينغلق تفكيره، ولا ينقاد بسهولة، ولكن الخوف من الجهل، فالمستعمر يستغل الجهلاء لتكريس نفوذه، وكلما انتشر الجهل تتحقق غايات المستعمرين. "فالمتعصب لا يبحث عن الإخلاص لذاته وعن تطوير قدراته الذاتية؛ إنه يتخلى عن "المصداقية" و "الأصالة" ويترك البحث عن حقيقة ذاته ولأجل ذاته، ليكرس نفسه لمثال مفروض من الخارج، مقبول ككل، ولا يجوز إعادة النظر في أمره. لأن تاريخه ومثله الشخصية يربطانه بالمثال بألف خيط، حتى أنه يشعر بأنه مقدر له أن يكرس حياته لأجله. زد على ذلك أن هذه الروابط هي في أعماقه عاطفية، رمزية، بدائية، أكثر مما هي معرفية، فكرية، أو فكروية. على الرغم من كونها باطلة ووهمية، يتقبلها كل فرد كأنها شيء مقدس ومحرم، لا يتجاسر أي شخص على تمحيصه ولا على تحديه." [84]

"يكون التعصب قريباً من الهذيان؛ ويمكن أن نسميه "ذهاناً اجتماعياً" وفوق ذلك يحتوي على عنصر عنف وغضب، فهو لا يقبل النقاش ويريد أن يفرض اعتقاده على الآخرين، ويكون غياب التسامح كلياً. باسكال في كتاب الأفكار يربط بين الجرح النرجسي والتعصب". [85]

---

[84] المصدر نفسه، ص، 47 – 48.

[85] سيكولوجية التعصب، ص 75.

" وللمتعصب فكرة أنوية نرجسية ، فهو الوحيد الذي يكون دائماً على حق؛ والإيمان بالقدرة الكلية لفكرته: فبفضلها سيتوصل إلى تغيير العالم سحرياً، وإلى اجتلاب الفردوس؛ أخيراً نجد لديه فكرة إسقاطية تريحه من كل شبهات العنف والقصور البشري؛ إذ إن مع المكر موجودان في الآخر... إن المتعصب لا يتحمل الفكرة العلمية، فهو بكلام آخر لا يقبل أن يرى دوره الحقيقي في جماعة بشرية وفي العالم." [86]

هل الدين يحد من العنف؟

دوركهايم يؤكد أن المجتمع واحد و وحدته دينية بالدرجة الأولى، وأن البشر مدينون في ما هم عليه على صعيد الحضارة إلى مبدأ مؤدب قائم في الدين.

وأهم علماء الإسلام **ابن خلدون** يرى أن الصبغة الدينية تُبعد الناس عن التخاصم والتحاسد وتوحد القلوب.

"ويميل أنصار السلام إلى الابتداء بالعظة على الجبل. فمن هذه النقطة من تعاليم **يسوع المسيح** يطور كثيرون التزامهم باللاعنف. فينبغي علينا ألا نقاوم شخصاً شريراً كما قال يسوع وينبغي علينا أن نحب أعداءنا ونحسن إلى مبغضينا ونصلي لأجل مضطهدينا. وهكذا فقط نستطيع أن نعلن أهليتنا كأولاد للأب السماوي، لأن محبته بلا تمييز، وهو يمنح بركات المطر والشمس للأشرار والأخيار على السواء. فإذا أبغضنا الذين يحبوننا فهذه طريقة الشرير. وإذا أحببنا الذين يحبوننا وأبغضنا الذين يبغضوننا فهذه طريقة العالم. أما إذا أردنا أن نتبع يسوع ونقبل معايير ملكوته، فينبغي أن نحب أولئك الذين

[86] سيكولوجية التعصب، ص 18.

يبغضوننا. أنظر(متى 5 : 38 ولوقا 6: 27 – 36)".[87] **(طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون. طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون. طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدعَون.)**(متى 5: 5 ،9).

ولكن الغضب حقيقة لا يمكن تجاهلها، والغضب أعمى لا يميز بين موقف وآخر، وبما أن البشر لا يمكنهم احتمال العيش في خضم العنف، فهم يحاولون بذل كل الطاقات للخلاص منه، لهذا كان الحل الديني، وهو بإسقاط الغضب نحو شيء آخر، كتقديم القرابين، أو الذبيحة، أو الدعاء بقصد كسب تأييد الآلهة التي ستنتقم من المجرم أو الظالم. والصبر حتى تتحقق العدالة، وعندما تتحقق العدالة الإلهية يستريح المظلوم وتهمد ثورة غضبه، فعدالة الآلهة تصبح أقوى من أي ظلم وأي قوة. (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر 10). **الفارابي** يعتبر السعادة الحقيقية موجودة في العالم الإلهي، ولهذا لا يوجد مدينة شريرة بطبعها، بل بإرادة أهلها؛ فإذا اجتمعوا على الشر تكون شريرة - والشر هو البعد عن الله. وإذا اجتمعوا على الخير تكون خيرة – والخير هو القرب من الله.

" إن الديني في أكثر أشكاله يمسك بحقيقة تخفى على تيارات الفكر اللا ديني كلها، حتى أكثرها تشاؤماً، فهو يعرف أن ركيزة المجتمعات الإنسانية ليست شيئاً مسلماً به يستطيع البشر الادعاء بأنهم أصحاب الفضل فيه، لذا كانت علاقة الفكر الحديث بالديني البدائي جد مختلفة عما نتصور، ثمة إغفال أساسي لحقيقة العنف ونحن نشارك الفكر الديني فيه، على أن في الديني بالمقابل عناصر معرفية جد واقعية بشأن العنف تُخفى علينا كلياً، إن الديني يرشد الناس إلى ما يتعين عليهم فعله تجنباً لعودة العنف المدمر، فعندما

---

[87] المسيحية والقضايا المعاصرة، ص 92.

يُهمل البشر الطقوس وينتهكون المحرمات يحرضون العنف المتعالي بكل معنى الكلمة على النزول بينهم مجدداً والتحول إلى مخرب شيطاني، أي إلى رهان عظيم وعقيم في آن، يتقاتلون حوله ويفني بعضهم بعضاً جسدياً وروحياً، حتى الإبادة الكلية، إلا إذا جاءت آلية الضحية الفدائية لإنقاذهم مرة أخرى، أو بتعبير آخر، إذا اعتبر العنف المطلق أن المذنبين لاقوا الجزاء المستحق، وارتضى أن يعود إلى عليائه متنائياً عن البشر بما يكفي لمراقبتهم والإيحاء إليهم بذلك الإجلال الذي يجلب لهم الخلاص."[88] وهذا الثأر الإلهي يصوره **أنكسيمندرس** من خلال نص: " من هناك، من حيث تولد الأشياء، وإلى هناك حيث يُفترض أن تزول، بحكم الضراوة، بعد أن تتبادل العقاب والتكفير عن إثمها وفق المدة الزمنية المقررة لها."[89]

في الحروب الدينية الأبرياء يدفعون الثمن

يروي "أمرتيا صن" - فيلسوف واقتصادي هندي- في كتابه "الهوية والعنف" مشهد قتل "قادر ميا" الذي كان مسلماً وعاملاً باليومية، طُعن بينما كان في طريقه للعمل، على يد بعض الناس الذين لم يكونوا حتى يعرفونه، ولم يكن قد سبب أي إيذاء للقتلة، قُتل فقط لأنه كان مسلماً، لقد كان مضطراً للخروج في أيام الشغب بحثاً عن عمل من أجل بعض النقود لأن عائلته لم يكن لديها طعام، هذا المشهد صعق أمرتيا وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره، فاستمرت هذه الذكريات تلاحقه في حياته، وكان من الصعب على طفل مذهول لا يعرف شيئاً عن عنف الهوية، أن ينسى تلك الأشياء المرعبة

[88] العنف والمقدس ص 436.

[89] المصدر نفسه، ص 517.

obeikan.com

التي حدثت، وهذه المجزرة التي تركت في عقبها آلافاً مؤلفة من من القتلى الهندوس والمسلمين. يقول أمارتيا: " لقد استطاع المحرضون السياسيون الذين شجعوا القتل، استطاعوا إقناع الكثيرين من الناس المسالمين من كلتا الجماعتين بالانقلاب إلى سفاحين مكرسين للقتل، لقد اقتيدوا إلى أن يفكروا بأنفسهم كهندوس فقط أو مسلمين فقط، (والذين ينبغي أن يطلقوا العنان للانتقام من "الجماعة الأخرى") وليس كأي شيء آخر على الإطلاق: ليسوا هنودا ليسوا من أبناء شبه القارة، ليسوا آسيويين، ليسوا شركاء في الإنسانية..." [90] هكذا وصف أمرتيا هؤلاء المحرضين على القتل. " إن المجزرة المفاجئة قد جاءت من لا مكان، لكنها بالطبع كانت مدبرة بإحكام على يد التحريض الطائفي، المتصل من شتى الوجوه، بالمطالب السياسية الملتهبة لتقسيم البلاد، ولم يكن الشغب الإجرامي القاتل ليستمر طويلاً، فلسوف يتبخر سريعاً من كل من جانبي البنغال بعد التقسيم... الضراوة المذهلة للعنف بين الهندوس والمسلمين كانت لها روابط سياسية قوية... وإن الأعضاء الأكثر فقراً في أي مجتمع هم الأسهل قتلاً في المشاغبات، حيث أنهم مضطرون إلى الخروج بلا حماية على الإطلاق بحثاً عن قوت يومي، وملاجئهم الواهنة من السهل اقتحامها وتخريبها. وفي الشغب بين الهندوس والمسلمين قتل السفاحون الهندوس المسلمين الفقراء المستضعفين بسهولة، بينما ذبح السفاحون المسلمون الهندوس الفقراء من دون اهتمام، وعلى رغم أن الهويات الاجتماعية لهاتين الجماعتين من الفرائس المستوحشة كانت مختلفة تماماً، فإن هوياتهم الطبقية كعمال فقراء لا يملكون وسائل اقتصادية كانت متماثلة. لكن لم تكن ثمة هوية أخرى غير العرقية الدينية أتيح أن تكون لها أي أهمية في تلك الأيام التي سادت فيها النظرة الاستقطابية المركزة على تصنيف انفرادي. إن وهم واقع

---

[90] الهوية والعنف، ص، 173.

صدامي متفرد اختزل الكائنات البشرية تماماً ، وحرم الأبطال من حرية التفكير... العنف الطائفي في كل مكان من العالم لا يقل اليوم فجاجة ، ولا يقل اختزالية عما كان منذ ستين عاماً. فوراء دعم الوحشية الفظة يوجد أيضاً اضطراب مفاهيمي حول هويات الناس، يحول البشر متعددي الأبعاد إلى مخلوقات ذات بعد آحادي. والشخص الذي جند للحاق برعاع الهوتو القتلة في 1994 كان يسأل، وإن كان بشكل ضمني، ألا يرى نفسه كرواندي أو أفريقي أو إنسان، (وهي هويات يشترك فيها مع التوتسي المستهدفين) ولكن فقط كهوتو واجبه الحتمي أن يعطي التوتسي ما يستحقون، إن مذبحة رواندا وما يتعلق بها من العنف بين الهوتو والتوتسي في بوروندي، قضيا على أكثر من مليون إنسان خلال أيام قليلة جداً. إن كراهية الناس ليست سهلة." [91]

ومن الواضح بأن أفعال الناس تتأثر بأمور كثيرة غير الدين، فهناك السياسة واللغة والطبقية والعرقية. " وعلى سبيل المثال انفصال بنغلادش عن باكستان كان قائماً على أسباب اللغة والأدب، مع الأولويات السياسية وليس على الدين، الذي كان يشترك فيه كل من قسمي باكستان قبل الانفصال. إن تجاهل كل شيء إلا الدين معناه طمس حقيقة الاهتمامات التي تحرك الناس لتأكيد هوياتهم والتي تتجاوز الدين بكثير." [92] " معظم الناس هم أناس آخرون" عبارة مبهمة أعلنها أوسكار وايلد. وقد يبدوا أن هذا القول كواحدة من أحاجيه المفرطة الخيال، لولا أن وايلد دافع في هذه الحالة عن رأيه بتقديم حجة مقنعة:"أفكارهم هي آراء أشخاص آخرين، حياتهم محاكاة، وعواطفهم اقتباسات". "إننا في الواقع نتأثر إلى درجة مدهشة بالناس الذين نرى إننا نشترك معهم في هوية واحدة. إن الأحقاد الطائفية يمكن أن تنتشر كالنار في الهشيم،

---

[91] الهوية والعنف، ص 174- 175.

[92] الهوية والعنف ص 164.

كما رأينا في كوسوفو والبوسنة ورواندا وتيمور والسودان، وأماكن كثيرة أخرى في أنحاء العالم. ومع التحريض المناسب يمكن أن يتحول وعي متعمق منذ النشأة بهوية مشتركة مع جماعة من الناس إلى سلاح قوي يوجه بوحشية ضد جماعة أخرى. والواقع أن كثيراً من النزاعات والأعمال الوحشية في العالم تتغذى على وهم هوية متفردة لا اختيار فيها. وفن بناء الكراهية يأخذ شكل إثارة القوى السحرية لهوية مزعومة السيادة والهيمنة تحجب كل الانتماءات الأخرى تعطي هذه الهوية شكلاً ملائما ميالا للقتال، يمكن أيضاً أن تهزم أي تعاطف إنساني أو مشاعر شفقة فطرية قد تكون موجودة في نفوسنا بشكل طبيعي. والنتيجة قد تكون عنفاً عارماً مصنوعاً داخل الوطن، أو إرهابا وعنفا مراوغاً ومدبراً على مستوى كوكبي. إن من أهم مصادر الصراعات الكامنة في العالم المعاصر الزعم بأن الناس يمكن تصنيفهم تصنيفاً متفرداً مؤسساً على الدين أو الثقافة. إن العالم كثيراً ما يؤخذ على أنه مجموعة من الأديان، مع تجاهل الهويات الأخرى التي يتمتع بها الناس ويقدرونها والتي تتعلق بالطبقية والنوع والمهنة واللغة والعلم والأخلاق والسياسات." [93]

---

[93] الهوية والعنف ص 11- 12 .